ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 170 – 180

القصيدة الموريطانية بين النقاء الثقافي وخصوصية الإبداع

The Mauritanian poem between cultural purity and The privacy of creativity

د. آمال كبير

جامعة العربي التبسي. تبسة – الجزائر-

Kebiramel07@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 /05 /09

تاريخ القبول:
2021 /09 /22

الكلمات المفتاحية:
- ✓ المغرب العربي
- ✓ موريطانيا
- ✓ القصيدة الكلاسيكية
- ✓ القصيدة الحديثة
- ✓ الثقافة، الإبداع

الملخص:

لم يكن الشعر في بلاد المغرب العربي الكبير في منأى عن التطورات الحداثية للقصيدة العربية، غير أنه مرّ بمرحلة طويلة من الكلاسيكية التي جعلته يبدو متأخرا زمنيا عن تحولات البنية والموضوع الشعري للقصيدة العربية في المشرق؛ وتعدّ (موريطانيا) أهم قطر مغاربي يمكن أن نقول عنه إنه يحمل تلك الخصوصية الثقافية الشديدة الالتصاق بعناصر الهوية الصحراوية فكرا وقيمة؛ مما جعل الإبداع الشعري فيه يصاغ ضمن أشكال فريدة من التحديث والابتكار المتميز. يهدف البحث وفقا لهذا إلى محاولة إجلاء الخصوصية الثقافية لبلاد "شنقيط"، والكشف عن السمات التي وسمت القصيدة وجعلتها متميزة؛ تحمل هوية مغايرة لا تشوبها شوائب التقليد الأعمى ولا الجمود الكلي.

Article info

Received
09/05/2021

Accepted
22/09/2021

Keywords:
- ✓ *The Arab Maghreb*
- ✓ *Mauritania*
- ✓ *The classic poem*
- ✓ *The modern poem*
- ✓ *The culture, creativity*

Abstract :

Poetry in the countries of the Great Maghreb was not immune to the modernist developments of the Arabic poem, However, he went through a long period of classicism, which made him appear late in time to the structural and poetic theme of the Arabic poem in the East. (Mauritania) is the most important Maghreb country that we can say that it carries this cultural specificity that is very attached to the elements of the Sahrawi identity in thought and value. This made poetic creativity in it formulated within unique forms of modernization and distinguished innovation .The research aims in accordance with this to try to clear the cultural specificity of the country of "Chinguetti" And the identity of the authentic poem.

مقدمة

لا شك أن دراستنا لآداب المغرب العربي تستثني في كثير من الأحيان قطرا مهما من أقطار المغرب وهو (موريطانيا) – ويطلق عليها اسم (شنقيط): وهي كلمة بربرية معناها عيون الخيل، أو عيون الجبل، وهي تقع في الصحراء من جهة الشمال من دولة موريطانيا، وقد عم الاسم الإقليم كله، وقد نالت موريطانيا الشهرة بهذا الاسم، لأنها كانت مركز البلاد، وقبلة لجميع سكان الأقاليم، يجتمعون فيها استعدادا لرحلاتهم أو أسفارهم من بلادهم إلى بلاد المغرب– على الرغم من أن الحركة الشعرية فيه على جانب كبير من الغزارة والتميز، إذ لم يتخلّ الشاعر عن قصيدته الأم التي تحمل ثقافته الخاصة، قبل أن يتحول إلى نمط القصيدة العربية، فأجاد في كل الأغراض المعروفة، القديمة منها والمستجدة، والواضح أن حركة التحول إلى نمط القصيدة الحديثة لم تصرف الشاعر الموريطاني عن نقائه الثقافي، لكنها ارتفعت به إلى فضاءات إبداعية موازية لفحولته التقليدية. وعلى الرغم من أن هذا القطر يعدّ «... مثلا من أمثلة المجتمعات البدوية العربية القليلة، التي استطاعت أن تقيم حياة متميزة، في اتصالها الإنساني المتنوع، مع المجتمعات الإفريقية، وفي العلاقات الفريدة التي نسجتها معها من خلال الصلات والاجتماعية والدينية والثقافية، مما أعطاها صورة فريدة، وخصوصية في بناء حياتها التي أبدعت مثلها؛ وصنعت تقاليدها، في مواجهة المستجدات والمستحدثات، وألوان الحضارة المختلفة التي تعرضت لها، وتظل الصحراء، في كل مكان، مستودعا أمينا للأفكار ولنظم الحياة التقليدية ولهذا فهي تحتفظ بالأصالة، وبالنقاء، إلى جانب الإبداع، في ما تحتاج إليه من صور الحياة الجديدة التي تقتحم عليها وحدتها، ذلك أن تلك الصور لا تكاد تصلح للبيئة الصحراوية دون تطويع لها، والتطويع باب من أبواب الإبداع » (النحوي، 1987، صفحة 5) إلا أنهم لم يكونوا على حسب ما جاء في دراسة أبناء القطر أنفسهم مهتمين بالتدوين لقوة الحافظة لديهم من جهة، إضافة إلى اهتمامهم الواسع بالعلوم الشرعية وبالعلوم اللغوية على وجه مخصوص من جهة أخرى، « ويمتاز هذا الشعب بالاهتمام بدراسة العلوم الشرعية، وإقامة شعائر الدين، كما يمتاز أيضا بالتقوى والورع والعفة والحلم والصبر والكرم » (مسعد حسين، 2019، صفحة 16) غير أننا في الوقت نفسه نجد من يصفه ببلد المليون شاعر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا البلد يملك من الأدباء والشعراء ما يملكه غيره أو يفوقهم، لكن العلة تكمن في كونه بلدا مغمورا ثقافيا لأسباب غير واضحة تماما.

على هذا يمكن أن نتساءل حول طبيعة القصيدة الموريطانية، كيف تشكلت في البداية، وكيف استطاعت أن تجلي مظاهر الثقافة بمنتهى النقاء وهي تخترق تقليدية النمط القديم، وتخرج إلى فضاءات التجديد؟ وقد كان ضروريا أن نتدرج في تقديم نماذج من الشعر في كل غرض ونقوم بالتعليق عليها بما يتوافق مع هدف الدراسة وهو: تحديد السمات الثقافية الخاصة للقصيدة الموريطانية، وإبراز مدى إجادة الشعراء في التعبير عن قضايا عصرهم، وخصوصية فكرهم من خلال القصيدة.

كما كان همنا من خلال الاشتغال على الشعر الموريطاني، هو تبيين القضايا التي اشتغل عليها شعراء هذا البلد المغاربي، والاتجاهات التي اتجهوا فيها إلى تطوير أشعارهم تدريجيا، والارتقاء بها إلى ما يحتاجه الشعر وما يبتغيه الفن. وهو ما جعلنا نستنبط سمات التحول الشعري في القصيدة الموريطانية غرضا وموضوعا وفق منهج تاريخي، والوصول إلى تحديد طبيعة الإبداع ضمن مقومات الهوية الصحراوية الخاصة جدا في بلاد (شنقيط)، متوسلين آليتي: الوصف والتحليل.

1. قضايا الشعر الموريطاني وخصائصه

كان لموريطانيا قبل الإسلام ثقافة شعبية متفردة الخصوصية، شديدة التميز، وكان لها إلى جانب ذلك إبداع شعري في معظمه مقصود من أجل الغناء (أتهيدين)، وهو غالبا ما يكون غناء حماسيا في حالات الحرب، وفيه أيضا الكثير من مدح الملوك « ولقد اعتاد منشئوه وهم

غالبا من الرجال أن ينشدوه على الجمال ضابطين أصواتهم على وقع حماسي خاص يناسب مقاما من السلم الموسيقي المعروف "بفاغو" وكلما مرت منه تقطيعة، ترفع القينات تغاريدها بترديدات عالية تربط بين ترجيع الحكاية واللحن الموسيقي...

مارتْ عنْ حَسْبكْ عادْ إنهولْ

أُمارتْ عنْ مَّا كيفكْ رِزْكاني

فيكْ ممُّ أُفيكإمْهَلْهَل

أُفيك امْهَمَّاد أُكاني

وترجمة هذه القطعة إلى الفصحى كالتالي:

إن علامة أن حسبك يهزّ مشاعرنا

وعلامة أن ليس في بني رزك من يشبهك

أن نعرف فيك شمائل ممُّ ومهلهل

وأبي هْمادوكاني » (المختار، 2003، صفحة 18)

ثم تطور في القرن الثاني الهجري على يد أهل (مانو)، من ذلك قول الشاعر (أعلى ابن مانو): (المختار، 2003، الصفحات 18-19)

ما اتْلَيْـــتْ أدْبَشْ لِلْخَطَّارْ

أُعِدْتَ نَغْلَبْهُمْ لَكانْ جْرَيْتْ

فَوْكْلَبْيَظْ جـملْ المخْتارْ

ذاكْ وَلْدْ جـمل تاشيذْبيتْ

والمعنى هو:

إني لم أعد عبئا على المسافرين

بل أصبحت أشؤوهم حينما أغذّ السير

وأنا على جملي، المعروف بالأبيض، جمل المختار

ذلك الذي ينتسب إلى جمل قبيلة تاشدبيت

لكن بعد التمكن من اللغة العربية صار الشعر المبدع باللغة الفصحى من أجمل الأشعار التي عرفها المغرب العربي، خاصة وأن التأثير الأندلسي في الشعر الموريطاني كان واضحا من خلال جملة من المعارضات الشهيرة.

2. أغراض الشعر الموريطاني

في مطلع القرن الحادي عشر بدأت مظاهر النهضة الشعرية في (موريطانيا) تتضح جليا؛ أما الأغراض والمواضيع التي قالوا فيها الشعر فإنها لم تخرج عن تقاليد القصيدة العربية القديمة، شأنهم في ذلك شأن المغاربة جميعا في بداياتهم الشعرية.

1.2. الفخر

من ذلك أبيات في الفخر بالنسب لصاحبها (المختار بن حامد) يقول فيها: (بن حامد، د ت، صفحة 85)

بربرت نفسي إن بربرت لمتونة ووالدي وديـــــــمانا ومن دونه
وإننا أينما سار المـــــطيّ بنا أبناء لمتونه أو أحـــلاف لمتونه
وما لنا لبني لمتونه من نسـب إلا انتســـاب إلى لمتونه ينمونه
والحميرية في لمتونه دونـــها عشرون شيخا أما تكفيك عشرونه
ولو رآها ابن خلدون وطالعها لما تريــث في الأمر ابن خلدونه

فلمتونة تعدّ من أشهر القبائل الصنهاجية التي كانت تعيش على الغزو والتجارة، وغيرها مما توفر من دروب السيطرة على الحياة والارتقاء بها في تلك الأزمان « وكان لمتونة يتمركزون في الوسط مع اقترابهم من النطاق الجنوبي المحاذي للسودان، قبل أن ينتقلوا في عهد الفتوحات المرابطية إلى جبل آدرار الذي سيصبح جبل لمتونه » (ولد السالم، 2010، صفحة 175). ولهذا نلاحظ أن طبيعة الشعر تميل إلى التقليدية بشكل جلي.

كذلك نجد الكثير من القصائد التي يعتز بها أهل (موريطانيا) بنسبهم العربي منها أبيات لـ:(مُحَمَّد فال بن عينين) يقول فيها: (النحوي، 1987، صفحة 286).

إنا بنو حســـن دلت فصاحتنا أنا إلى العرب العرباء ننتسب
إن لم تقم بينـــات أننا عرب ففي اللســـان بيان أننا عرب
أنظر إلى ما لنا من كل قافية لها تذم شذور الزبرج القشب
الطفل يولد فينا كابن ساعدة منقحا دررا أصـــدافها ذهب

فهذه الأبيات مثال على مدى اعتزاز الشناقطة بالعروبة، خاصة بعد أن علموا الدين حق العلم وتأثروا بما جاء فيه، وأرادوا تتبع تعاليمه كما جاءت في كتاب الله.

2.2. الشعر التعليمي

نظرا لاهتمام الشناقطة بالتعليم؛ خاصة من أجل فهم القرآن والتفقه في الدين الإسلامي، عمد الشعراء إلى نظم قصائد تحث على طلب العلم ومجالسة العلماء، منها قصيدة للشاعر (مُحَمَّد فال بن متالي) يقول فيها: (النحوي، 1987، صفحة 83)

عليك بالتـــــعلم والتعلم ذا رغبة في أجره المعظم
ولا يزعك عن حضور العلم وأهله إن لم تكن ذا فهم
فإن في الجلوس عند العالم سبع كرامات لغير الفاهم
تحصيل فضل المتـــعلمينا وحـــبسه عن الذنوب حينا
مع نزول رحمة الـــله عليه عند خروجـــــه بنية إليه

وأنه له نصيب يحـــصل مما من الرحـــمة ثم ينزل
وأنه مادام منه ســـامعا فإنه ممن يعـــــدّ طائعا
وضيق قلبه من الحـرمان وسيلة لرحـــــمة الرحمان
وأن يرى العالم قد أجـلا في النـاس والفاسق قد أذلا
فطبعه ثم إلى العلم يميل عسى عليه يفتح الله الجليل
لذا النبي بحضور العلما أمـــــــرنا فلازما التعلما

فهذه القصيدة على بساطة لفظها ومعناها تؤدي الحكمة البالغة في طلب العلم، إذ يبين الشاعر أن التعلم ليس وسيلة مكسب دنيوي بقدر ما هي وسيلة لنيل رحمة الله ورضوانه، ولذلك فقد تنافس أهل البلاد في طلب العلم « ونقلها أحفادهم إلى أدغال إفريقيا حتى اليوم، وازدهر هذا التبادل الثقافي العلمي بين مدن البلاد وباقي أقطار الوطن العربي الإسلامي، فبرزت شهرة بلاد شنقيط، وبرز علماء فطاحلة شناقطة في علوم شتى، وألفت عشرات الآلاف من الكتب، وأنشئت مئات المكتبات الكبيرة والصغيرة المستقرة في القرى والمتنقلة، وتطير شهرة شنقيط والعلماء الشناقطة في آفاق العالم العربي والإسلامي حتى أصبحت بلاد الحرمين الشريفين ودول الخليج تتلقف العلماء الشناقطة للتدريس في جامعاتهم ومعاهدهم في العهد القديم والمعاصر » (مسعد حسين، 2019، صفحة 56) وهذا دليل على ميلهم الشديد إلى تعاليم الدين الإسلامي، بل والأخذ بها من منطلق كونها فكرا قيما وثقافة راقية.

3.2. الغزل

اختلف العلماء فيما بينهم حول هذا الغرض من الشعر فمنهم من جعل بعضه حلالا ومنهم من حرّمه كله، ولهذا فإن شعر الغزل لم ينتشر لديهم بقدر انتشاره عند العرب قديما، ولم ينبغ فيه شعراء بعينهم أو أسماء لامعة، أما ما جاء منه فكان على نمط المقدمات الغزلية التي أُثرت عن طبيعة البناء التقليدي للقصيدة العمودية، وقد جاء به الشعراء لا قصدا إليه بالذات بل رغبة في إثبات الفحولة الشعرية فقط، لكننا في هذا المقام نمر على أبيات مرهفة للشاعر (الذيب الحسني الكبير مُحَّد بن أبي المختار) إذ يقول: (مسعد حسين، 2019، صفحة 87).

ألا جلد يوم النـــــوى أستعيره لبين حبيـــــب زمّ للبين عيره
إذا ما جمال البـــين للبين زمّت وشدّت حدوج المستقلّ وكوره
ففي غمرات البـــين ما يشغل الفتى عن الصبر مما قد أجنّ ضميره
يموت فؤاد الصـــــبّ أول وهلة لدن يســـألاه منكر ونكيره
فيغمره في لجة المـــــوت غامر ويبعث حياّ يوم ينـــفخ صوره
ومدّ صراط الحبّ فوق لظى الهوى فيهوي به عامي الهوى وكفوره

فنجد أن الغزل لديه – ومنه لدى شعراء موريطانيا – إنما كان غزلا عفيفا، استخدم فيه الشعراء ألفاظ الشعر العربي القديم، واقتبسوا من ألفاظ القرآن الكريم، وهو إلى جانب هذا التقليد شعر مرهف حساس، غاية في الرقة والمتانة، ولولا الغلوّ الديني الذي عرفت به البلاد في تلك الأزمان، لأجاد الشعراء في شعر الغزل وتوغلوا في سيماته ومعانيه بما يضمن لهم التفوق فيه والنبوغ.

4.2. المدح

ينقسم غرض المدح إلى: المديح النبوي، وإلى مدح الملوك التقليدي؛ فمن المديح النبوي ما ورد عن الشاعر (مُحَمَّد بن عبد الرحمان الحسني) القائل: (مسعد حسين، 2019، صفحة 149)

أعينيّ وجدا تهـــــرقان معا دما نجيعا حكى لونا على الخد عندما
فهذا أنا والصدر يرشـــح بالذي به فتبـــــــدى كونه مترعا دما
وكوني فتى أمسى جريحـــا فؤاده بأسهم حـــــب دام دهرا فدمدما
وقبّل فكري إثر نعل محـــــمد ولو جئـــــــت مغناه لقبّله فما
فإن لم تكن لي خيمة حول رمسه فهذا هـــــــواه في فؤادي خيّما
فيا ليت خـدّي كان موطئ نعله وصدري ضريحا جامعا منه أعظما
عليك صلاة الله ثـــــم سلامه وآلك والأصـــحاب مع تابعيهما
لك السبق فضلا والتأخر مولدا وكنت لفـــضل الله بدءا ومختما

فهذه المقطوعة من قصيدة طويلة في مدح النبي مُحَمَّد ﷺ، تدل على قيمة الإحساس الذي يكنه الشاعر للرسول، وقد استعار لذلك من اللفظ الفصيح والقول البليغ ما جعله يصف النبي ومشاعره نحوه أجلّ وصف، أما التقليد فيبدو من خلال استهلال الشاعر القصيدة بالغزل على آثار (كعب بن زهير) في بردته الشهيرة.

والواضح أن الشعر الصوفي الذي تميز فيه شعراء موريطانيا، كان ينهل من معين واحد رفقة شعر المديح النبوي الشريف، على الرغم من كثرة المذاهب وتنوع الطرق الصوفية (وهو موضوع متخصص جدا، يتقاطع مع موضوع بحثنا إلا أن الاشتغال عليه قد يطول أكثر مما يسمح المقام)

أما في مدح السلطان فنمثل بأبيات من قصيدة للشاعر (حرمة بن عبد الجليل العلوي) في مدح (بلاّ الحسنى): (مسعد حسين، 2019، صفحة 242)

وقر الشيـــــب عن نداء الطلول وادّكار لســـــاحبات الذيول
لبس برد الصـــــبا وقد خلعته عنك أيدي المشيب غير جميل
لا يليق النسيـــب بالشيخ إن لم بتخلق أخـــلاق شرّ الكهول
لا تجل في تلك الميادين واسلك إن تكن راشـــدا سواء السبيل
واعتبر في شـــخص تجمع فيه وهو فرد خـــــلال كل نبيل
سيد هو ســـــادة حين يدعى مستـــغاثا لكل خطب جليل
إن بلّا مشـــــايخ حين تعرو شاردات تفـــوت أيدي العقول

إلى آخر القصيدة التي يعدد فيها الشاعر خصال الشيخ وسماته ودماثة أخلاقه ورجولته النادرة، وغيرها من السمات التي استحق عليها المدح، وهذه القصيدة كما لاحظنا تبدأ بالوقوف على الأطلال وذكر المشيب، وهي سمة بنائية تقليدية امتاز بها شعر المدح وفق عمود الشعر العربي، وكما نظر لها (ابن قتيبة) آنفا، لكن هذا لا يعني أن كل قصائد المدح في (موريطانيا) كانت على هذا السبيل الفني من التقليد، فقد صادفنا الكثير من القصائد المتفاوتة الطول والقصر يبدأ فيها الشاعر بالمدح مباشرة، وهي إحدى سمات التجديد التي لم تخل من رصانة التعبير لفظا وبلاغة ومعنى وبديعا.

5.2. الرثاء

كما هي حال الشعر في أقطار المغرب والمشرق والعالم جميعا، لا تخلو الثقافة الشعرية من الرثاء، الذي يمكن أن يكون أسمى أغراض الشعر، لارتباطه بحالة وجدانية لا يمكن التشكيك في صدق عاطفة الشاعر فيها غالبا، ومن ذلك نتقي أبيات من قصيدة للشاعر (الشيخ مُحَمَّد اليدّالي) في رثاء (المختار بن الفاضل) قائلا: (مسعد حسين، 2019، صفحة 303)

خطب أعار لقـــــلبي الهمّ والقلقا وأودع المـــــقلتين الدمع والأرقا

أرى سهام المـــــنايا لم تدع أحدا ولا تغـــــادر أهل الملك والسّوقا

من رزء مخـــتارنا بن الفاضل انفتقا في الدين فتق فأعظم بالذي انفتقا

واختل في الدين شمل كان منتظما به وبدر الهـــدى من فقده مُحِقا

فالشاعر لا يرثي الشيخ بصفته الإنسانية، أو بصلاته البشرية، بل إنه يرثي فيه فضله على الدين أيضا، وذلك أكثر ما يؤلم في الفقد، ولهذا فإن أكثر المراثي التي عثرنا عليها كانت في شيوخ عظام أو أئمة كرام.

6.2. أغراض وموضوعات متنوعة

كما نظم الشعراء الموريطانيون في أغراض كثيرة أخرى، ويمكن القول إنهم قد قالوا شعرا مفلقا في كل ما قالت فيه العرب من مواضيع، متقدمة كانت أم متأخرة، كالمساجلات، والمعارضات، والحكم والمواعظ والتوسل، وكذلك في الزهد والتصوف، وقد قل شعر الهجاء والخمريات إلى حد بعيد لأسباب دينية كما وضحنا ذلك حين قدمنا لشعر الغزل.

وحتى يستوفي التدرج التاريخي مساره نسبيا في تقديمنا للقصيدة (الموريطانية) المتشبثة بالخصوصية الثقافية والفكرية لبلاد (شنقيط)، ندرج تحليلا لقصيدة معاصرة (موجعات العقل)، بالإشارة إلى بعض السمات الحداثية التي تجاوزت عمود الشعر العربي القديم، وخرجت عن كثير من سمات القصيدة القديمة (غرضا وموضوعا وبناء) لتمثل الشاعر الموريطاني المعاصر بشكل أقرب إلى التحرر وإن لم يكن كليا، وبطريقة تميل إلى التجديد وتدعو ضمنيا إليه.

3. قصيدة (موجعات العقل) للشاعر (ناجي مُحَمَّد الإمام) في ميزان الحداثة

ورد تعريف الشاعر في الويكيبيديا كما يلي: (ناجي مُحَمَّد الإمام) هو شاعر موريتاني كبير يلقب بـ(متنبي شنقيط) نشأ في بيت محافظ مشهور بالعلم والصلاح، ظهرت عليه مخائل العلم الديني في سنواته الأولى فكتب و تهجى دون أن يخط حرفا ونظم الشعر الفصيح وهو ابن ثمان أو سبع سنين، وحفظ ودخل المدرسة في وقت مبكر في قرية صنقهرافة، ثم انتقل إلى مدينة مقطع الحجار حيث واصل دراسته

الابتدائية وطرد لنشاطه السياسي المدرسي مطلع سنته الابتدائية السادسة سنة1971بعد اعتقاله. اشترك مع الخليل النحوي، ومُحَمَّد كابر هاشم في بواكير تأسيس تنظيم للشعراء الموريتانيين بدؤوه بفكرة رابطة أقلام الصحراء، ليمر باسم رابطة الأدباء والفنانين قبل أن يصبح اتحاد الأدباء والكتاب الحالي، وتولى رئاسة مجلسه الأعلى منذ إنشائه. مؤسس ورئيس مجلس أمناء جمعية الضاد لنشر اللغة العربية والدفاع عنها.

أما قصيدته (موجعات العقل)، فقد تم لنا الحصول عليها من صفحته الشخصية على (الفيسبوك) وقد سمح لنا بالاشتغال عليها بوصفها مخطوطا، وذلك لأنه لم ينشر كتاباته الشعرية بعد، ولهذا فسوف نسجل القصيدة كاملة قبل تحليلها:

(موجعات العقل)

يوجعُ العقلَ أن تَمُرَّ السِّنونُ

ظاعنات بعُمْرِنا والقرونُ

والأماني زهوَ الحياة،رمادٌ

ودخان وأدمعٌ وشجون

والمغاني بلاقعٌ وطلول

وتــلالٌ كئيبة وحُزونُ

موطن الصبح والصّبا والصبايا

والمواويل والشراع الرزين

قد رَمَتْهُ صروفُه بالدواهي

وبغاثٌ مستنسرٌ وجنونُ

ليت شعري متى يثور الضحايا

رُبَّ ساهٍ قد صلبته الطعون

وطن الحر مجـدهُ وعُـلاهُ

وسُماهُ وحيثُ كان يكون

قَدَرُ الشعـر أن يُعيد السجايا

للبرايا كما تعـود اللحون

قَدَرُ الشعر والجروح قصاصٌ

أن يثير المنونَ فيه المنـونُ

يثأرُ الجرحُ للجريح فيصحو

ألفُ ثأرٍ وألفُ نفس تهونُ

يُعولُ الرَّفضُ في دماء اليتامى

والأيامَى فيستحيل السكون

إن للحق صولة وهديـرا

وزئيراً تنهدُّ منه الحصون

كان عهدا على الكُماة ووَعْدًا

أن ترى النصر باليقين العيونُ

1.3. جمالية التجديد الشعري

إن الشعر روح العصر وروح الإنسان، ولا يمكن أن تتحول الأزمان ويبقى الشعر حبيس الزمن القديم، ولهذا نجد القصيدة في موريطانيا قد انتقلت من طور التقليد الكلي للقصيدة العربية القديمة، وتماشت تماشيا طرديا مع متطلبات العصر وتقلبات السنون، فاستعارت للفظها جسدا حداثيا اتفق النقاد على أنه المنهاج الجديد لسيرورة الشعر المعاصر، بعد الثورة التي قادها الشعراء العرب في المشرق منذ (نازك الملائكة) و(بدر شاكر السياب).

وإذا كانت الجماليات الجديدة للشعر العربي قد أخذت في بداية ثورتها على التقليد هدم عمود الشعر العربي، واستبدال نظام الشطرين بنظام السطر، وصولا إلى كل الانتهاكات البنيوية لجسد القصيدة الأم، فإن الشاعر في هذه القصيدة ينتحي منحى المجددين الثائرين بنية ومضمونا، ويأخذ بيد الشعر ليتفقد قيمة الحرية في قلب الإنسان ممتطيا صهوة الثورة المزدوجة، ومتفائلا بانتصار الإنسان «والشعر يتبدى للناس لعبا، ولكنه ليس كذلك. إن اللعب يقرب ما بين الناس، ولكن على نحو يجعل كل واحد منهم ينسى نفسه فيه، أما في الشعر فالإنسان يركز ذاته على وجوده الإنساني، ويصل هناك إلى الطمأنينة. لا إلى تلك الطمأنينة الوهمية المتولدة من البطالة، وفراغ الفكر. بل إلى تلك الطمأنينة الضافية التي يصحبها نشاط في جميع القوى والعلاقات » (عبد الصبور، 1992، صفحة 9) وهذا المعنى هو ما نجده مبثوثا بين أبيات هذه القصيدة، إنه الشعر الذي يضيف إلى الفكر لبنة من نظر ثاقب في مصير الإنسان، وفي تعويله على الثورة من أجل حريته الحقة التي لا يمكنه التفريط فيها مهما طال زمن الباطل وجور الجلاد.

2.3. التراث ومرتكزات الثقافة الشعرية

لم يتخلص الشاعر من الموروث الثقافي للقصيدة التقليدية القديمة على الرغم من خروجه عن طبيعة البناء العمودي، فهو يستخدم للتعبير عن أفكاره عبارات شائعة من النص الشعري القديم، مثل: (ظاعنات، طلول) وإن كان استخدامه إياه مختلفا عن الصيغة التأثيثية الشائعة في النص القديم، « وهذا التراث يحمل تحديا للوعي الثقافي العام، وللوعي الشعري الحديث بشكل خاص، ولذا فإن التعامل مع التراث ينبع من موقف محدد، مبني على وعي جمالي وثقافي مسبق. كونته الذات بقدر معين، وساهمت عوامل أخرى (المجتمع- العصر- العلاقات الإنسانية...الخ) في تكوينه. والشعر العربي لا يستجيب للتراث كمجرد رغبة فنية بحتة، بل نتيجة لوعي أشمل وأعمّ، إذ إن هذا التراث يمثل ذاكرة الإنسان الواعية لماضيه » (الصباغ، 2002، صفحة 368) ولهذا فإن استعارة مثل هذه الألفاظ للتعبير عن ظعن العمر، وطللية الفرح؛ وسّع المعنى من الإحالة المادية للفظة إلى إحالة فكرية اندمجت مع تأثير الصيغة الروحية للوجع، فزادت القتامة الدلالية المنسحبة على النفس أثرا.

3.3. قضية الحرية في القصيدة

إن الشاعر في هذه القصيدة يخرج بموضوع شعره عن الغنائية التي تنبعث من الأبراج الفنية العالية، ويتفاعل مع الثورة الكامنة في أبياته تفاعلا يجعله هو الشعر وهو القصيدة، متنصلا من خيانة قضايا الإنسان؛ « إن الشاعر مطالب بوضع حدود لما ليس له حدود، فهو المؤهل إلى اختراق الحجب المادية في الحياة لجمع أكبر قدر من الجمال منها، كما أنه المؤهل إلى التعمق في أغوار الحياة الإنسانية، والذات الإنسانية بخاصة، لوصف جغرافية الإنسان الداخلية والتعبير عنها، أي استخراج الجانب الوجداني منها » (العشي، 2009، صفحة 186)، وهنا اتحد الشاعر مع قضية الإنسانية الأولى وهي الحرية، فكان أحد الأصوات التي تنادي بالثورة من أجل الحياة قائلا إن:

قَدَرُ الشعـر أن يُعيد السجايا

للبرايا كما تعـود اللحون

وهو أيضا ينطلق من تجربة إنسانية صارت تجربة فنية بفعل الشعر؛ فالشعر هو مجموع « العواطف والصور: العواطف التي هي تجربة في العذاب، وبالتالي في المعرفة، والصورة في شكلها الموقع هي وسيلة الشاعر الوحيدة للتعبير عن عاطفته » (فاولي، 1987، صفحة 19)، وهنا تبدو عاطفة الشاعر متجاوزة حدود الوجدان، فقد تحولت إلى إدراك عقلي، وحين يتحول الوجع إلى إدراك فإنه يصير أكثر قسوة وأشد وطأة على الفكر والنفس والروح؛ وهذا ما يبدو من خلال العنوان؛ (موجعات العقل)، فـ « العمل بالنسبة للفنان عملية عقلية واعية، وليس مجرد انفعال أو إلهام، وهو عمل ينتهي بخلق صورة جديدة للواقع، تمثل هذا الواقع كما فهمه الإنسان وأخضعه لسيطرته » (فيشر، 1973، صفحة 16).

ويبدو أن الشاعر يريد أن يخضع العالم المتشظي بفعل الظلم إلى سيطرة فنية بفعل القصيدة، إلا أنه لا يمكن له أن يعلل القيمة التي يشير إليها إن لم يشترك القارئ معه في فهم السياق، ومقاربة الأحداث، وتفعيل الأثر بالقدر الذي تستوجبه المجازفة الثورية ضد كل متعلقات النبذ والظلم والوحشية التي تضيع الأوطان.

4.3. الإيقاع بين التقليد والتجديد

غلبت على النص الجمل القصيرة المكثفة الدلالة، مما جعل القصيدة تقبع تحت وقع الإيقاع المرسل، هذا ما جعل تكاثف الألفاظ يحدث حالة من الإيحاء المتكامل مجاله تدوير الأبيات لاستكمال المعنى، وتحديدا من خلال الحفاظ على القافية والروي الموحد.

إن النظام الإيقاعي الذي اعتمده الشاعر في هذه القصيدة يحيل على الشكل التقليدي للنص الشعري، أكثر من إحالته على نمط السطر الذي ينبئ به التشكيل البصري للأبيات، وفي هذا رمزية مقصودة من قبل الشاعر، فالقارئ قادر على تحويل النص إلى النظام البنائي القديم دون أن يحدث ذلك أي عيب على جسد القصيدة، ويمكنه أن يتركه على حاله على سبيل الثورة الفنية المصاحبة للثورة البشرية، مما يجعل سؤال الكتابة يتحول من مجرد البحث في البنية كأداة لتشكيل النص إلى البحث في البنية كفاعل في إنتاج الرؤية الشعرية، وتفعيل قصدية الشاعر داخل النص.

5.3. خصوصية القصيدة بين التقليد والتجديد

من خلال هذا الطرح البسيط لشعرية النص نستنتج أن: الشاعر يتعامل مع اللغة والمعنى والرؤية والقصد بوصفها كلا متكاملا، مندمجا في صيغة شعرية واحدة، قابلة لإعادة التشكل والإحياء المتعدد بفعل القراءات المختلفة؛ « إنه أيضا يعيد الاعتبار للبعد الإنساني في

الشعر... فالواقع مادة خام واللغة مادة خام، والشاعر هو الذي يحولهما من حالة الهيول إلى حالة التشكل، وقد كانت قراءة الأدب في ضوء ثنائية الواقع– لغة. إما دراسة في الأفكار والتاريخ والأحداث الاجتماعية، أو دراسة في اللغة والصورة والرمز والموسيقى، وفي كلتا الحالتين انتقال من الرؤية التي تعد جوهر العملية الشعرية إلى الهيكل الخارجي لها » (العشي، 2009، صفحة 277) وبهذا يبدو لنا أن الشاعر على وعي تام بقيمة التعامل مع الواقع على أساس روحي، منوط بالشعر والشعراء دون غيرهم.

إن الشاعر هنا يرمز دون أن يترك أثرا واضحا لما يريد أن يقوله، إنه يشكل سمة فكرية في ذهن القارئ، راغبا أن تتحول إلى أثر (فعل) يحجبه بالتمني، من أجل أن تتبلور الرؤية التي ينشدها في ذهن الآخر، وحين يصير الآخر (القارئ) مؤتلفا مع الذات الشاعرة تتجلى الرؤى وتتحقق النبوءة.

خاتمة

في الختام يمكن أن نستخلص ما يلي:

إن القصيدة الموريطانية قصيدة متميزة بنية وموضوعا، وهي كذلك لأن الشاعر في (موريطانيا) تمكن من تأسيس لبنة جادة لفنه من خلال تمثله الواعي للشعر القديم. لقد كانت الطبيعة الصحروية سببا مهما في تقارب الثقافة الموريطانية فنا وإبداعا مع طبيعة البيئة العربية التي أنتجت الشعر القديم، برصانته وقوته وميزاته التي لا تخفى على باحث ولا تحتجب عن متذوق. أما ما يمكن أن نعده ركونا فكريا إلى تلك الأنماط وبطأً في الالتحاق بمواكب التحديث الشعري فيمكن أن يرّد إلى سبب ديني محض، أو لضرورة فكرية مثلت أجيالا من أبناء الصحراء المغاربية المتمسكين بالدين الإسلامي، وبرصانة اللغة وبكل ما يمت إلى قدسيتها، والشعر أحدها.

كانت بلاد (شنقيط) أبرز الأقطار المغاربية تمسكا بالفكر المتصوف، وهو ما جعل الإبداع الفني يتماشى طرديا مع الانغماس المذهبي والميل إلى المحافظة قولا وعملا.

قائمة المراجع والمصادر

1. ارنست فيشر. (1973). الإشتراكية والفن (الطبعة 1). (أسعد حليم، المترجمون) بيروت، لبنان: دار القلم.
2. الخليل النحوي. (1987). بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة، (المحاضر). تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون.
3. المختار بن حامد. (د ت). حياة موريتانيا، حوادث السنين، أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجوارها، تقديم وتحقيق: سيدي أحمد بن أحمد سالم،. د م.
4. حماه الله ولد السالم. (2010). الإسلام والثقافة العربية في الصحراء الكبرى، دراسات ومراجعات. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
5. رمضان الصباغ. (2002). في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة جمالية (الطبعة 1). الإسكندرية، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.
6. صلاح عبد الصبور. (1992). الأعمال الكاملة، أقول لكم عن الشعر. القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. عبد الله العشي. (2009). أسئلة الشعرية، بحث في آلية الإبداع الشعري (الطبعة 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.
8. مُحَمَّد مسعد حسين. (2019). وقفات على بلاد شنقيط (الطبعة 2). الإسكندرية، مصر: الدار العالمية للنشر والتوزيع.
9. والاس فاولي. (1987). عصر السريالية، تر:. (سعيد خالدة، المترجمون) بيروت، لبنان: دار العودة.
10. ولد أباه مُحَمَّد المختار. (2003). الشعر والشعراء في موريتانيا (الطبعة 2). الرباط، المغرب: دار الأمان.